هل اتصل نابوليون بالامام سعود ؟

مغامرات « لاسكاريس » في البلاد العربية ، وعقده حلفاً بين العشائر العربية لمقاومة الترك والتمهيد لمرور الجيوش الافرنسية الى الهند . اللقاء بين مندوب نابوليون وبين الإمام سعود في الدرعية .

تشير المصادر الافرنسية إلى محاولة قام بها نابوليون بونابرت ، امبراطور فرنسا ، للاتصال بالإمام سعود والاتفاق معه على محاربة الانكليز في الهند وإخراجهم منها . ولا نجد في كتب التاريخ السعودية أية إشارة إلى هذه المحاولة، ولا يعني ذلك أنها لم تقع .. فهذه التواريخ تغفل صلات الحكام السعوديين بالدول الغربية إغفالاً تاماً !.

إن اتصال الانكليز بالحكام السعوديين كان يفرضه وجودهم في الخليج العربي (الفارسي) وفي الهند ، فلم يكن لهم بد من التعاون — أو «الاصطدام» أحياناً — مع الرعايا النجديين ، بسبب البريد والنخاسة والتجارة وحوادث البحر من قرصنة وغيرها ... ومن هنا نجد في بعض التواريخ الحديثة ذكراً « للقاءات » و « اتفاقات » تمت بين السعوديين وبين الانكليز ، أصحاب الكلمة والقوة في الهند وفي بعض إمارات الخليج ..

أما اتصالات الافرنسيين بالدولة السعودية الاولى فما تزال مجهولة مغفلة ،

ولكن « اتصالاً » واحداً منهـا تذكره كتب التاريخ الافرنسي ويحيطه بعض المؤلفين بهالة من الصور الشعرية بل يجعلونه نوعاً من المغامرات الاسطورية الخارقة ، هو .. اتصال نابوليون بسعود !

يقول المؤرخ الافرنسي (سيديو) في كتابه : (تاريخ العرب العام) : « إن الوثائق الديبلوماسية أظهرت للنـــاس الاتصالات التي قامت بين الانكليز وبين الإمام سعود ، ولكن الأمر الذي لا تعرفه إلا قلة من الناس هو أن نابوليون بونابرت ، امبراطور الافرنسيين ، اتصل ، هو أيضاً ، بالإمام سعود ، وقد أشار الامبراطور إلى ذلك في مذكراته . »

والواقع إن نابوليون كان راغباً في إضعاف انكلترا وإذلالها والسيطرة عليها ، فرأى أن أفضل طريقة لتحقيق هـذه الأمنية العزيزة هي أن يحرمها من أعظم مصادر ثروتها وقوتها : الهنـــد .. التي وجد فيها الانكليز كنوزاً من الثروة لا تنضب وتحقيقاً لحلم أغنى من أحلام .. ألف ليلة وليلة !

قال نابوليون في نفسه : إذا غزوت الهنـــد ، وأخرجت منها انكلترا ، أصبحت انكلترا فقيرة ، ضعيفة ، متهافتة .. اومىء اليهـا بعصاي فتقع على الأرض وتنطرح بين يدي صاغرة ذليلة !

وربمـا كانت المرحلة الاولى ، في طريق نابوليون إلى تحقيق حلمه الكبير : غزوه مصر واستيلاءه عليها .

قيل لنابوليون ، وهو ينظر إلى الأهرام في مصر : هل تعرف عمر كل هرم ؟ إن الامبراطوريات الكبيرة لا تنشأ إلا في الشرق ، ولا تعيش أزمـــاناً طويلة وأعماراً مديدة إلا في الشرق ، فابنِ مملكتك هنـا .. ولا تفكر في دولة تقيمها في فرنسا ، لأن أعمار الدول في أوروبا قصيرة !

ولكن نابوليون كان يتجه بعقله وبقلبه إلى أرض فرنسا وحدهـا ولا يفكر إلا في مجد يقيمه هنـاك .. فإذا حارب في الشرق فهو يحارب من أجل فرنسا لا من أجل الشرق ..

يقول لامارتين ، الشاعر الافرنسي الكبير ، في كتابه المشهور : (رحلة إلى الشرق) :

(من الواضح أن نابوليون كان رجل الشرق ، لا رجل الغرب .

كان يستطيع أن يصنع في الشرق حضارة عظيمة ، تدوم ألف سنة بعده ..

ولكنه أخطأ .. واختار الغرب !

ومع هـــذا ، أرسل إلى الشرق رجلا ، ليكشف له عما يستطيع أن يفعله هناك، وليرتاد له الأماكن التي يجب على جيشه أن يجتازها ليصل إلى امبراطورية الهند .) !

هذا الرجل.. إيطالي،من أشراف(بيمونته)،يدعى لاسكاريس،وهو عسكري شجاع،عرفه نابوليون في جزيرة(مالطة)وأحبه،وأحبَّ هو نابوليون وأعجب به إعجاباً شديداً وتعلـّق به تعلقاً مذهلا ، فنذر نفسه لخدمته بكل قوته ، ووهب له حياته يتصرف بها كيف يشاء .

استدعى نابوليون لاسكاريس اليه وقال له :

أريد غزو الهند .. ولا يتم لي ذلك إلا إذا استطاعت جيوشي أن تعبر اليها من خلال البلاد العربية وفارس، وأحب أن أرسلك إلى سورية والعراق وفارس لتتصل بعشائرها وزعمائها، وتثيرهم ضد السلطات التركية ، ومتى اشتعلت البلاد بالفتن واشتغلت الحكومات بإطفاء الحرائق .. أتيحت لجيوشنا فرصة ذهبيــة للمرور من خلال تلك البلاد بأمن وطمأنينة ، وقد تساعدها العشائر التي نشتريها أو نحالفها !..

قبل لاسكاريس المهمة الهائلة التي اختاره لها نابوليون ، وكان يعرف أن معناها الجوع والحرمان والأذى والمشقات والأسر والسجن والتعذيب والموت ، ويقص علينـــا الشاعر الإفرنسي الكبير قصة لاسكاريس ، بأسلوب يجمع بين « الواقعية » والخيال .. وخلاصتها أن لاسكاريس – واسمه الكامل « لاسكاريس دوفانتيميل » – سافر إلى سورية وتسمى هناك باسم مستعار ، هو : « الشيخ ابراهيم » ، وارتدى ثوباً عربياً ، وأطلق لحيته ، وتعلم اللغة العربية من تاجر

حلبي مسيحي اسمه « فتح الله الصغير » وكان يقضي أكثر وقته في مقاهي دمشق وأسواقها ، ويتنقل بين دمشق وحمص وحماه وتدمر ، ويتظاهر بالغباء ، لغرض في نفسه ..

ولما قويت أواصر الصداقة بينه وبين فتح الله الصغير كشف له عن حقيقته وأوضح له أغراضه ومهماته ، فهو مكلف من نابوليون ، أمبراطور فرنسا العظيم ، أن يتصل بالعشائر المقيمة في البلاد العربية ويثيرها على الأتراك ، وأن يرسم الطريق التي يجب على جيوش نابوليون أن تسير فيها، خلال البلاد العربية لتصل إلى الهند ، ويجب أن تتو فر لهذه الطرق : المياه والمراعي القريبة وأكبر قدر ممكن من الأمن ، مع المعونة – أو التغاضي – من السكان والعشائر أثناء مرور الجيش ..

.. قبل فتح الله مشاركة لاسكاريس في عمله وخدمة أغراضه بكل إخلاص وجرأة ، وذهب فتح الله – الذي سمّى نفسه عبد الله – إلى الشيخ (دريعي الشعلان) ، شيخ عشائر عنزة العراقية ، وعمل كاتباً له ، حتى وثق به ، فحدثه عن صديقه الشيخ ابراهيم – لاسكاريس – ومـا زال يصفه له ويثني عليه حتى حبّبه به وشوّقه إلى رؤيته ، فأرسل دريعي إلى لاسكاريس يطلب منه المجيء اليه والحلول ضيفاً عليـه ، فلبّى لاسكاريس الدعوة ونزل في ضيافة دريعي وأهداه وأظهر له ضروباً من البراعة في الطب وفي السحر والتنجيم حتى أعجب به دريعي فأحبه وأصبحا صديقين حميمين..ووجد لاسكاريس في دريعي ضالته المنشودة.. فقرر أن يعقد حلفاً بين العشائر ويجعله رئيساً لهذا الحلف.. وقد بدأ عمله بعقد محالفة بين دريعي وبين رئيس شمر (فارس الجربا) ..

ثم عقد بين عدد كبير من العشائر ميثاقاً ، لخص لنا المؤرخ سيديو مضامينه كما يأتي :

١ – القبول بزعامة دريعي والطاعة له .

٢ – مقاومة الترك .

٣ – مقاومة الوهابيين .

٤ – مقاومة العشائر التي ترفض الانضمام إلى الحلف .
٥ – قتل الخونة ...

نقل أخبار الحلف الى الانكليز والى الامام :

ويقول سيديو إن الليدي ستانهوب، الحسناء البريطانية المغامرة، التي عاشت مدة من الزمان في تدمر ، ثم انتقلت منها الى جبل لبنان ، وكانت لها صداقات مع العشائر وزعماء لبنان ، سمعت بأخبار هـذا الحلف ، فسارعت في نقلها الى الحكومة الانـكليزية، وقامت الحكومة الانـكليزية فوراً بإبلاغ ذلك الى حلفائها الترك ، ثم أرسلت مندوباً عنها الى الامام سعود ، يبيّن له الأخطار التي تنشأ عن هـذا الحلف وتتهدد شخصه وملكه ، مثلما تتهدد الانـكليز والترك والهند ، لأن المتحالفين تعاهدوا على معاداة الدرعية !

ماذا كان جواب الإمام سعود ؟

لا يذكر سيديو شيئاً عن ذلك . أما لامارتين فيقول إن الإمام سعود أرسل مئة ألف محارب لقتـــال العشائر المتحالفة ، وجرت بينه وبين رجال دريعي وحلفائه ، الذين كان يقدر عددهم بثمانين ألفاً ، معارك رهيبة قرب بلدة (حماه) في سورية ،ولم يستطع السعوديون خلالها تحقيق نصر حاسم على خصومهم فعادوا الى أوطانهم .

هل وقعت هذه المعركة حقاً .. أم هي من نسج الخيال ؟ أكبر الظن أن أعداد المقاتلين أعداد مبالغ فيها كثيراً .. وأما المعركة ، فيترجح عندنا ، بغلبة الظن ، أنها وقعت .

يقول ابن بشر، في أخبار سنة ١٢٢٥ هـ. إن الإمام سعود سار في شهر ربيع الثاني الى الشام (لأنـه بلغه الخبر أن بوادي الشام وعربانه من عنزة وبني صخر وغيرهم فيها) .

وهذا الخبر يبدو غريباً ، وكأنه مبتور .. فهل يكفي أن تتجمع طائفة من

العشائر في الشام ، ليسير اليها سعود ويقاتلها ، كأنه موكل بمحاربة كل تجمع للقبائل ، ولو جرى ذلك في أقصى الارض ؟

من هنا لا نستغرب أن يكون هذا التجمع ، هو تجمع القبائل المتحالفة التي يتزعمها (دريعي) ، وقد ذكر لامارتين أن دريعي كان اجتـــاز الفرات الى الأراضي الشامية .

ومرّت الأيام ..

وأدرك الإمام سعود – بعـد أن قرر الترك محاربته وعهدوا بذلك الى والي مصر ، محمد علي – أنه أخطأ بمحاربته لدريعي ، لأنه عدو لأعدائه الترك وقـد يكون حليفاً له ضدهم ، فأرسل اليه يطلب منه زيارته ، فلبى دريعي الدعوة وجاء معه الشيخان : الشيخ ابراهيم «لاسكاريس» ، والشيخ عبد الله (فتح الله).

ويقول فتح الله ، فيما رواه عنه لامارتين ، إنه حدث الامام سعود عن نابوليون بونابرت ، وإن الامام كان عارفاً بأخباره ووقائعه ، ومعجباً بشجاعته وانتصاراته ، وكان يسميه : « أبو النار » أو « بونار » وهو اسم اشتهر في البلاد العربية بهـذه الصيغة .. وربمـــا كانت تحريفاً لاسمه .. أو لقباً اختاروه له لكثرة نيرانه وحروبه !

ويزعم فتح الله إن دريعي قـــال للإمام إنهم لم يقرروا معاداته إلا خوفاً من اتفاقه مع الانـكليز والترك ضدهم ، ولكنهم الآن تبينوا عداء الترك له ، فهم معه ، إذا أراد .. فقبل الإمام سعود الاتفاق معهم .. والسكوت عن زحف الافرنسيين الى الهند .. ولكن نابوليون أصيب بهزيمة هائلة في سهول روسيا ، ثم تغلبت عليه انكلترا وحليفاتهـــا في واترلو .. وبذلك تحطم حلمه في غزو الهند .. ومات لاسكاريس من القهر !

ويقول بعض المؤلفين الافرنسيين : لو أن نابوليون انتصر على أعدائه ، لاستطاع الامام سعود أن يستولي على استانبول نفسها [١] .

---

(١) انظر كتاب جيفو : (الامبراطورية العربية : الدولة الكبرى الثالثة) .

حديث فتح الله عن الامام سعود :

ويقول فتح الله، فيما رواه عنه لامارتين أيضاً ، إن سعود سأله عن النصرانية ومعتقداتها ، ثم قال له :

أليس بينكم من يزعم إن المسيح هو الله أو ابن الله ؟

فأجابه فتح الله : المسيح هو « كلمة الله » ليس غير .

فقال سعود : ولكن اليهود ، في زعمكم ، عذبوه وصلبوه !

فقال فتح الله : الكلمة لا تُصلب.. ولكن الرجل – أو الصورة التي تقمصها المسيح – هي التي عذبها الأشرار وصلبوها .

فقال سعود : وهل تشركون مع الله أحداً ؟

فقال فتح الله : نحن نؤمن بوحدانية الله !

فسرّ سعود بذلك ، وقال : إن بين من يدّعون الاسلام من يشرك بالله ، كأكثر الروم .. – أي الترك – .

ويقول فتح الله عن سعود إنه واسع الثقافة والمعرفة ، وبليغ جداً ، ولكنه متشدد في ديانته كثيراً .

وكان يأكل من طعام صنعته له نساؤه ، خوفاً من أن يدسّ فيه السم .

.. وكان يأكل بأصابعه ، فلما التفت الى فتح الله ورآه قد أخرج من جيبه ملعقة وسكينة وصار يأكل بها ، ابتسم وقال :

الحمد لله . كل قوم راضون بعاداتهم ، وقد يظنون أنها هي الافضل !

وكان يقوم على حراسة سعود كثير من العبيد !